مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 509 - 528

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

الخطاب الديني المتلفز وتشكيل الهوية الدينية للمرأة: دراسة ميدانية على عينة من النساء المعسكريات

Televised Religious Discourse and the Formation of a Woman's Religious Identity : Empirical Study on a sample of women in the city of Mascara

جير الزهرة [1*]، طيبي غماري [2]

[1] جامعة مصطفى اسطمبولي بمعسكر (الجزائر)، z.djir@univ-mascara.dz

[2] جامعة بلحاج بوشعيب بعين تموشنت (الجزائر)، ghomaritaibi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/06 تاريخ القبول: 2022/04/27 تاريخ النشر: 2022/05/05

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة فهم الاستجابات الهوياتية للمرأة عبر مختلف العروض الخطابية الدينية المُتلفزة التي تبث عبر برامج التلفزيون الجزائري، وبما أن المرأة تعد محور التحول وركيزة التغير، ركزت الدراسة على عينة قصدية مكونة من إثنا عشر(12) مفردة من مدينة معسكر للتعرف على مدى استيعاب المرأة الجزائرية للخطاب الديني المُتلفز ومدى مساهمته في ضبط إيقاع الممارسات الدينية اليومية لها داخل الفضاء الاجتماعي، وقد تم الاستعانة بمنهج الفهم الفيبيري في التحليل. توصلت الدراسة إلى أن المرأة المعسكرية محل الدراسة تعيش تارة وعيا زائفا وتارة أخرى وعيا قلقا (التفكير في الآخرة، الجنة، النار، الثواب، العقاب...)، حيث أن العديد من ممارساتها وسلوكياتها الاجتماعية اليومية تعكس واقعا متمايزا يصل إلى حد التناقض مع النموذج المثالي الذي يصف نفسه بنفسه، كما يمكن القول أن الخطاب الديني المُتلفز في حد ذاته أصبح غذاء ثقافيا سريعا لتتم بذلك سلعنته بقياس مستوى الأوديمات، من حيث ترويجه وحساب نسب ربحه في ظل سوق دينية استهلاكية منافسة.

كلمات مفتاحية: الخطاب؛ التلفزيون؛ المرأة؛ الهوية الدينية؛ التدين.

Abstract:

The present study aims at understanding the identity responses of women through the different televised religious rhetoric shows broadcast on Algerian television programs. Given that women the core of transformation and the main character of change, the study focused on an intentional sample consisting of twelve (12)study cases from the city of Mascara to investigate the extent to which Algerian women comprehend the televised religious discourse and the degree of its contribution in controlling the pace of their daily religious practices within the social space. Accordingly, The Weberian approach was used for data analysis. The study concluded that the Mascarian women under study experience a kind of false awareness sometimes and an anxious awareness at other times (Thinking about the afterlife, heaven, hell, reward, punishment..), as many of her daily social practices and behaviors reflect a distinct reality that amounts to contradicting the self-described ideal model. Besides, it can be said that the televised religious discourse has becomea superficial and cultural fuel to be commoditized by measuring the level of audimats in terms of its promotion and the calculation of its profit rates in light of a competing religious consumer market.

Keywords: Discourse; Television; Women; Religious Identity; Religiosity.

[*] المؤلف المرسل.

مقدمة:

يحتل موضوع الدين موقعا متميزا على صعيدي الفكر والممارسة في المجتمعات الإنسانية، فالمهم هنا أن نوضح أننا في دراستنا للمسائل الدينية لن نتناول العقيدة أو الإيمان المطلق بالغيبيات، بل سوف نهتم كل الاهتمام بمختلف أنواع الوعي والممارسات الاجتماعية، وبشكل خاص الأفعال التي تتجسد في سياق الخطاب الديني بمختلف تجلياته وتمظهراته في الحياة اليومية للفاعلين الاجتماعيين. من المهم أن نوضح أن ثمة تعسفا حينما نفصل بين العقيدة الدينية والتجليات والممارسات العملية في الفضاء الاجتماعي، لأن كلا منهما يمثل وجها ومظهرا لعملة واحدة، لذلك يمكننا القول أن الدين هو روح الممارسة، كما أن الممارسة تعدّ بمثابة جسد للدين.

إن موضوع الخطاب الديني وإشكالية تجديده لا تزال محور اهتمام المفكرين المسلمين، خاصة وأنه أصبح يهتم بكل الأبعاد والمؤشرات لفهم صيرورة الحياة الاجتماعية بمختلف تمظهراتها وتغيراتها عبر الزمان والمكان، لذلك رأينا أن المقاربة السوسيولوجية للظاهرة الدينية على مستوى خطابها ونعني بذلك البرنامج الذي يُبث على قناة الشروق TV (ضمن الرزنامة الأسبوعية "فاسألوا أهل الذكر" الذي يبث كل يوم جمعة) ومدى ارتباطه بتشكل الهوية الدينية للمرأة يعد ترجمة ذهنية، وسلوكية لهذا الخطاب.

وعليه، انطلقت دراستنا من تساؤل إشكالي يبحث عن مدى استيعاب المرأة الجزائرية للخطاب الديني المُتلفز ومدى مساهمته في ضبط إيقاع الممارسات الدينية اليومية لها داخل الفضاء الاجتماعي؟ ومنه يمكن أن نطرح عدة أسئلة كالتالي: هل ثمة قصدية في الخطاب نحو توجيه المرأة المتتبعة له إلى بناء نفسها وبناء مجتمعها؟ ما هي آليات ومكونات هوية المرأة الجزائرية في ظل تفاعل السجل الإيماني التقليدي مع السجل الإيماني الحداثي؟ كيف يؤثر هذا التعارض بين النسقين القيميين (التقليدي وغير التقليدي) على مسألة الهوية النسائية في الجزائر؟ ما درجة تلقيها للخطاب الديني؟ كيف تفهمه وتؤوله وتمارسه ضمن إيقاع معيشها اليومي؟

لذلك سيكون منطق الإجابة من منطلق التوقعات التي نسعى إلى إثباتها من خلال الدراسة الميدانية، والتي تتمثل غالبا في كون متابعة المرأة للخطاب الديني الذي تبثه قناة الشروق TV الجزائرية ضمن برنامج "فاسألوا أهل الذكر" راجع إلى الاعتقاد بنقص معارفها الدينية، وسعيها

المتواصل للفهم والإدراك وكذا تطلعاتها لبلوغ مكانة اجتماعية أفضل وفق ممارساتها الطقوسية اليومية وبالتالي فهي تسعى لتشكيل هوية دينية متمايزة في ظل ما تتلقاه من خطاب هادف ومُتلفز.

1. مفاهيم الدراسة:

1.1. الخطاب الديني المُتلفزْ:

يقصد به "التوجه بالكلام المسموع، والمرئي، والمقروء في الإذاعة، والتلفزيون، والصحافة المكتوبة. ويقصد بالديني هنا ما كان متعلقا بالدين الإسلامي خاصة" (اليحياوي، 2016، ص.94) أما الخطاب الديني كمفهوم إجرائي في دراستنا هاته، فهو الكلام في الدين، المسموع والمرئي، أو هما معا، والصورة المرئية، والرسالة المبثوثة على الشاشة، والذي تقدمه برامج التلفزيون الجزائري، حيث يطغى على مضامينه المحتوى العقدي المقصود إرشادا ودعوة وتفسيرا وشرحا للعقيدة، واجتهادا لتقديم فتاوى لمواضيع مختلفة يتساءل عنها الجمهور المتلقي، ويتصل بصفة مباشرة بالشيخ الذي يمارس فعلا خطابيا.

2.1. الثقافة الدينية:

يعرف جاك بيرك BERQUE Jack الثقافة بكونها "حركة مجتمع في بحثه الذاتي عن دلالات وعن معنى" (Berque,1984, p.103) متجاوزا بذلك التعريفات البنيوية ليركز على المعاني والدلالات الوظيفية التي يؤديها هذا المفهوم ضمن النسق الذي ينتمي إليه، ونقصد بها في دراستنا جملة التصورات الذهنية (التمثلات) التي ترسمها المرأة حول الدين، أي أنها ترجمة وانعكاس لما تقوم به هؤلاء النسوة ودرجة استيعابهن ومعرفتهن لتعاليم الدين والشريعة الإسلامية.

3.1. الهوية الدينية للمرأة:

يمثل الدين أحد أهم مصادر بناء الهوية التي يبحث عنها الفاعلون الاجتماعيون باستمرار ويسعون لتجسيد هذا الانتماء وتجديده والتعبير عنه تمثلا وفعلا، كون "الدين في الأصل واحد لكن التديّن، أي طريقة تبني ذلك الدين وإتباعه وتأويل نصوصه وتطبيقه يختلف، وقد اختلف بالفعل عبر التاريخ وعبر الجغرافيا" (الشرفي، 2014، ص.87).

بما أننا في محاولة للبحث والتقصي عن تأثيرات الخطاب الديني المتلفز على الهوية، فإننا ننوه إلى أننا سنركز الحديث على شخصية الفاعلين المتلقين (المرأة) لهذا الخطاب، باعتبار أن هذه الهوية الدينية تعني الدافع الإيماني الذاتي والمنبه الداخلي الذي يوجه المؤمنات بمختلف فئاتهن، إلى اكتساب معارف أو ثقافة دينية إضافة إلى القيم الدينية وترجمتها إلى جملة من السلوكيات الدينية ضمن تفاعلاتهن اليومية.

4.1. المقدس والمدنس:

تعددت تعاريف المقدس تبعا لتعدد المشارب والإيديولوجيات الدينية، فهو إما رموز وأشكال وتعابير دينية تتبلور في شكل بناية أو مكان أو مجال أو زمان أو شخصيات...تمارس ضمنه جملة من الطقوس التي يطغى عليها الطابع الديني. لقد تم تعريف المقدس "le sacré" من خلال تعارضه الجوهري مع الدنيوي "le profane "، فالظاهرة الدينية حسب تعريف إميل دوركايم E. Durkheim تقوم على الانقسام الثنائي للعالم إلى مجالين متعارضين ومتنافرين هما المقدس والمدنس، والمقدس هنا هو المحاط بالمحظورات بحيث يمنع الاتصال به أو الاقتراب منه على الكائنات والأشياء العادية.

وقد أكد مرسيا إلياد على وجوب الخروج من فخ التعارض هذا باعتبار المقدس غير متماثل مع الإلهي، ولا مقابل فقط للدنيوي، فهو "تجلٍ للإلهي في الزمان والمكان، والطقوس بالطبع هي التي تضمن إمكان العبور من الزمن العادي إلى الزمن القدسي" (Eliade, M. 1965, p.61) ليصبح بذلك الطقس والرمز ومجمل هاته الحالات التي تظهر في الفعل والتمثل ذات طابع قداسي أو تسحب منها هاته القدسية الممنوحة.

5.1. الدين الشعبي (الإسلام الشعبي):

حقل واسع من الممارسات والعقائد المتباينة، حيث يظهر بعضها منفصلا عن الدين الإسلامي الرسمي المنظم ثابتا وواضحا على غرار الممارسات السحرية، بينما يظهر البعض الآخر منها شديد الصلة بالمنظومة الرسمية (الإسلام العارف) لتتخذ من أصولها مرجعيات تستدل بها وجودها وتضمن بها استمراريتها لتتموقع بذلك في كنف الثقافة الدينية السائدة، ولعل التماس الأيادي البيضاء للاستشفاء والاعتقاد في كرامات الأولياء وما يتصل بها من طقوس كالزيارة والوعدة ... خير

دليل على ذلك. وبذلك يصبح الإسلام الشعبي معيشا يستند إلى الممارسة اليومية، وفي أنه انفعالي يستند إلى علاقة بسيطة مع الله وعفوي باعتباره غير خاضع للتقعيد والتنظير.

يحيل "الإسلام الشعبي" إذن على تعابير وتمثلات دينية غير محددة، لا يمتلك حقيقة ملموسة يمكن ملاحظتها، إنما يمثل بعض التعابير والوسائل الناقلة من كلام وبنايات ومؤسسات واحتفالات واعتقاد ومكان وزمان وشخص ....إنه مزيج مركب.

2. الإجراءات المنهجية:

1.2. منهج الدراسة:

انطلاقا من موضوع دراستنا وفهمنا للمنهج باعتباره طريقة يتبعها الباحث في دراسته للمشكلة المراد دراستها من أجل الوصول إلى الحقيقة، اعتمدنا على منهج الفهم الفيبيري في محاولة منا لفهم مختلف استجابات المرأة لمختلف العروض الخطابية الدينية المتلفزة.

2.2. مجالات الدراسة:

1.2.2. المجال الجغرافي:

تم اختيار مدينة معسكر لأنها مكان تواجد الباحثة مما يسهل عليها جمع البيانات من خلال تطبيق تقنية المقابلة. أما عن موقع مدينة معسكر فهي تقع شمال غرب الجزائر، تحدها شمالا وهران ومستغانم، وجنوبا سعيدة، وشرقا تيارت وغليزان، أما غربا فتحدها سيدي بلعباس.وتبلغ مساحتها 5.135 كلم2 ، ويقدر عدد سكانها 828.434 مواطن.

2.2.2. المجال الزمني:

تمت الدراسة الميدانية تقريبا بالموازاة مع الدراسة النظرية، وذلك من أجل مجانسة الجانب النظري مع الجانب الميداني (الاستطلاع النظري، ومتابعة البرامج الدينية المتلفزة، ومساءلة النسوة المتابعات لهاته البرامج) وذلك من أجل ملامسة الواقع الذي يعشن فيه النسوة وفهم الأسباب التي جعلتهن يتوجهن بشكل كبير نحو مشاهدة البرامج الدينية المحلية ومدى استجابتها لمضامين هاته البرامج. وقد بدأت الدراسة خلال سنتي 2019-2020.

3.2.2. المجال البشري:

اشتملت الدراسة على النسوة المتابعات للخطاب الديني الذي يعرض على شاشات التلفزيون الجزائري، على وجه التحديد برنامج "فاسألوا أهل الذكر" بقناة الشروق tv.

3.2. أدوات جمع البيانات:

اعتمدت الدراسة في جمع البيانات على تقنية المقابلة – إضافة إلى تقنيتي تحليل الخطاب وتحليل محتوى البرامج الدينية المتلفزة في الدراسة الأصلية- حيث قمنا بجمع البيانات من خلال تطبيق الدليل على اثنتي عشرة مفردة، أما طبيعة هذه البيانات فقد كانت غزيرة وقد كنا نثير كل بند من بنود المقابلة أمام المبحوثات ليتحدثن حوله بحرية تامة. بعد جمع المعطيات شرعنا في محاولة تصنيف تصريحات المبحوثات حسب المحاور المدرجة.

4.2. عينة البحث وطريقة اختيارها:

لقد كانت عينة بحثنا عينة قصدية، إذ بلغ عدد المبحوثات اللواتي تم استجوابهن 12 مبحوثة تتراوح أعمارهن بين 22 سنة و84 سنة، آخذين بعين الاعتبار الفئات العمرية لهن وذلك من أجل الوقوف على التفاوت في التمثلات الدينية والسلوكيات كلما تقدمت المرأة في السن. وقد كن يتكلمن بالدارجة العامية كونهن يستطعن تقديم تفاصيل عن تحولات الخطاب الديني الذي شهده العالم العربي، خاصة مع تنامي الفضائيات الدينية وكثرتها محليا وعالميا، وتمثلاتهن لهذا الخطاب في نفس الوقت. "فالباحث من خلال دليل المقابلة يلعب دور المحدث والمستمع وربما المذكر لأن كل التركيز هنا يذهب إلى أقوال المبحوث"(Bourdieu, 2000, p.p.76-77)

3. نتائج الدراسة:

1.3. سوق الفضائيات الدينية والهوية:

مع ظهور الفضائيات الدينية وانتشارها ودرجة الإقبال الذي لاقته لدى الفاعلين الاجتماعيين، طفت إلى السطح مجموعة من الاختلافات والرؤى المتعددة بالنظر إلى الإسلام والتدين، وهي تنوعات لم يكن المسلم البسيط على دراية وعلم بها (كالمرجعيات الدينية مثلا)، وبتطور الأحداث الاجتماعية المتنوعة المصاحبة للطفرة التكنولوجية المعاصرة وجد المسلم نفسه

أمام سوق من الفضائيات الدينية، التي تعرض منتوجاتها وقراءاتها المتنوعة من خلال الاعتماد على مجموعة من الدعاة الجدد، المتميزين بشخصياتهم الإعلامية المؤثرة والكاريزمية، والتي نجحت إلى حد ملحوظ في التأثير على خارطة الهويات الدينية في العالم الإسلامي عامة، والمجتمع الجزائري بصفة خاصة بعد موجة التغيرات التي أحدثها التوجه الديني والسياسي للحركات الإسلامية- وهو ما أقرته دراسات عديدة مثل دراسة رشيد جرموني ويحي اليحياوي ونعيمي مليكة...وغيرها-.

تتماشى وظائف هذه الفضائيات التلفزيونية الدينية مع النزعة الاستهلاكية التي يشهدها العالم المعاصر اليوم، والتي من تجلياتها فردنة التدين ضمن عملية نشر قيم الخلاص الفردي باسم الدين ووفق ترسيخ التقليد الديني التاريخي "الذي يلقي بالمتدين في عوالم لاهوتية تضفي على سلوكه الاجتماعي غربة وجودية، وتنزع عنه الإرادة وتشل حركته وترهن مصيره بيد السلطات الدنيوية التي تشجع على تدين أناني" (الغيلاني، 2013) بحيث يصبح الفاعلون الاجتماعيون لا يستمدون توجهاتهم القيمية من الدين المؤسساتي والتربية الدينية المحلية كما كان معمولا به في السابق، فهم يستندون إذن على الاستقلالية الفردية المستمدة من هذه الفضائيات الدينية، وذلك وفق المعاني والدلالات الدينية التي قام باكتسابها، وساهم كل ذلك في تراجع التوجيه الأخلاقي والديني الجماعي الاجتماعي المتسم بصفات الجبرية والقهرية كما يذكر دوركايم لصالح الاستقلال الفردي المستوحى من نماذج الدعاة الجدد والبرامج الدينية التلفزيونية، والذي يملي على الأفراد اختياراتهم الخاصة في علاقتهم مع المقدس، وكيفية تفعيل هذه الاختيارات في واقعهم اليومي وحياتهم المعاشة.

إننا عند محاولة مساءلة إحدى المبحوثات (المبحوثة رقم 12، 25سنة، عزباء، ابتدائي) بخصوص متابعتها لقناة الشروق TV وجدناها تصرح قائلة بأن: (القَنَوَاتْ الجَزَايْرِيَة نَاقْصِينْ بَزَافْ، أَنَا نْشُوفْ قَنَاةْ اِقْرَأْ وَالرَّحْمَة، خَطْرَاتْشْ نْدِيرْ قَنَاةْ القُرْآنْ تَاعْ السْعُودِيَة) واستدراجا للكلام مع هذه المبحوثة، فقد تبين أن الدعاة الجزائريين حسب رأيها تنقصهم الكفاءة والقدرة على أخلقة الخطاب الديني، فهي بذلك تقاوم ما هو محلي وتتكيف مع ما هو خارجي، مع العلم أن هذه المبحوثة متعلمة ولديها نوع من الوعي النسبي بطرق التواصل وخصوصية الخطيب والمتلقي، لأن الخطيب الفضائي[1]

[1] الفقيه الفضائي: نقصد به رجل الدين الذي يستخدم الخطاب الديني في شكله الإعلامي التواصلي مع الجماهير، حيث يؤثر بشكل مباشر في تشكيل التصور العام والتأثير الذهني في رؤية الناس لأنفسهم وللعالم.

وحتى الخطيب الأرضي[1] حسب رأيها تنقصه بعض التقنيات والثقافة للتأثير الإيجابي على المستمع بصفة عامة والمرأة المستمعة على وجه الخصوص.

وبهذا يمكن ملاحظة تعامل المرأة مع الدين في الواقع انطلاقا من تزكية متحصل عليها من الفضائيات الدينية والتي فتحت المجال أمام طقوس استهلاكية منتشرة لدى المتلقين لمحتويات برامجها وخاصة منها ما يتعلق بالدعاة الجدد والفتوى العامة التي تبثها. حيث "استطاعت القنوات الفضائية العربية أن تؤثر في المشاهد من خلال ما تقدمه من برامج للفتاوى الدينية حول مختلف القضايا، ولوحظ من خلال متابعة هذه البرامج أنّ ما يقدم من فتاوى قد تختلف مع بعضها البعض، بل قد تختلف عند نفس المفتي من وقت لآخر، مما قد يسهم بشكل كبير في إمداد الجمهور بمعلومات، قد تحتمل الخطأ والصواب، حول فتوى في مجال معين، ويلعب ذلك دورا كبيرا في تكوين معارف إما أن تكون متناقضة أو منقوصة تماما، وينعكس ذلك على أسلوب استخدام الجمهور لهذه المعارف عندما تترجم في شكل سلوك فعلي." (حامد حسن، 2012، ص.02)

إن مراقبة هذه العلاقة الجديدة خاصة بين ما يجري بين التدين والواقع هو من الأمور التي أصبحت تتيح لنا متابعتها كعلاقة منتجة لهوية دينية مستمدة من سوق الفضائيات الدعوية بمفهومها التربوي التثقيفي الواضح المعالم، وهذا بغية طرح تساؤلات متعددة حول انحصار أهمية القوالب الدينية التقليدية التي كانت تقوم على جملة من المؤسسات الساعية لترسيخها على أساس كونها مسلمات فطرية وطبيعية. لتصبح بعد ذلك متعددة ومتراكبة تتجسد في مجموع التغيرات التي تعرفها الظاهرة الدينية في المجتمعات الإسلامية، والتي تم فيها من خلال هذه الفضائيات تحديث ما هو تقليدي، وتقليد ما هو حداثي بطرق وميكانيزمات سمعية بصرية لها تأثيرات كبيرة على المؤمن المتلقي. حيث تحاول إنتاج معارف وهويات دينية حديثة للمقدس نتيجة للتثاقف الكبير الحاصل في عالم اليوم، لكن ما يبدو لنا اليوم هو أن هناك علاقة من نوع خاص مع المقدس والدلالات الدينية بتعدد أنواعها، لذلك أصبح التفكير في الإسلام والهوية الإسلامية مشابهان في آليات التعامل معهما مع أي منتج اقتصادي كان خاصة إذا كان موجها إلى مستهلكين كما يذكر باتريك هايني HAENNI

[1] أما الفقيه الأرضي فهو رجل الدين الذي يستخدم الخطاب الديني في شكله التقليدي (في المساجد والزوايا والكتاتيب و.....) والذي غالبا ما يكون بعيدا عن الأضواء الإعلامية.

Patrick في مؤلفه الشهير عن إسلام السوق، وكما أعلن عن ذلك "أحد المفكرين الإصلاحيين أمام جمع من شيوخ الأزهر الذين فوجئوا بفكرة أنه: لا يجب أن ننشد الفضائل المطلقة من منطلقات دينية، ولكن عبر بيعها من خلال فعاليتها الاجتماعية.... كما هو الحال في البرامج الحوارية الأولى التي قدمها عمرو خالد" (هايني، د.ت، ص.90)

من جهة أخرى نجد أن هذا التنوع الهائل في البرامج الدينية التي تبثها الفضائيات الدينية المختلفة مكن المرأة من التعامل بنوع من البرغماتية مع القضايا الدينية التي تواجهها في واقعها اليومي، وبخاصة ما تعلق منها بالفتوى. حيث أنها وجدت نفسها أمام سوق مفتوح من الفتاوى المتمايزة، والتي تتفاوت درجة صرامتها وليونتها أو تسامحها، وقد سمح لها هذا التفاوت من اختيار المواقف والتوجهات الدينية التي تتماشى وجل الوضعيات الاجتماعية التي تعايشها. وهو ما يوفر لها نوعا من التوفيق أو الجمع والتركيب بين المصالح الدنيوية، والهوية الدينية دون شعور بالرهبة من مخالفة تعاليم المقدس، على اعتبار أن هذه البرامج والفضائيات تتيح لها الشرعية الدينية اللازمة لاختيار مواقفها وتجسيدها واقعيا على مستوى ممارساتها اليومية. وهذا ما يمكن اعتباره من المؤشرات ذات الدلالة الفعلية القابلة للملاحظة على التغيرات الحاصلة في الهوية والظاهرة الدينية بصفة عامة نتيجة للفضائيات والإعلام الديني.

2.3. اتجاهات المرأة نحو مشاهدة البرامج الدينية:

يرتبط حديث المرأة عن الدين والتدين في غالب الأحيان بثنائيات: المقدس/ المدنس، الحلال/الحرام وغيرها، وقد تزامن ظهور الفضائيات واختلاف برامجها مع بروز ظاهرة التدين كظاهرة اجتماعية بامتياز لها ما لها من انعكاسات على المستوى الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي.... باعتبار أن الموسطة التلفزيونية للدين تعتبر موجها هاما لأنماط وأشكال التدين الحديثة.

إن سبب مشاهدة المرأة المحلية للبرامج الدينية عموما وبرنامج "فاسألوا أهل الذكر" خصوصا هو الرغبة في تكريس العقيدة وتعميق الفهم للدين حيث نجد المبحوثة رقم 08 (39سنة، متزوجة، جامعي) تقول في هذا الشأن: (نَتْفَرَّجْ حِصَصْ الدِّينْ حَتَّى تْكُونْ لِي مَعْرِفَة بِأُمُورْ الدِّينْ والعَقِيدَة)، نظرا للدور الكبير الذي يوليه الوازع الديني من أجل مشاهدة البرامج الدينية وبالتالي فهو محدد لمشاهدة البرامج والخطب الدينية الفضائية. ولعل الفئات الأكثر مشاهدة للبرامج أو

الأكثر تدينا هن من يستخدمن مصطلحات (الحلال/الحرام، يجوز/ لا يجوز، .....) تظهر هوية هؤلاء بمجرد الاسترسال في الحديث، أما الفئات الأقل مشاهدة أو الأقل تدينا فتستخدم عبارات (غير لائق/ جميل/ قبيح/ حشمة/ عيب....) ويشير ذلك إلى نسق قيمي اجتماعي تعبر من خلاله النسوة عن ارتباطهن بالمحيط الاجتماعي ومقاسمتهن القيم والمعايير الاجتماعية، والتي تم من خلالها تبني استخدام مقولات حول السحر والتماس الأيادي البيضاء وفي زيارة الأضرحة والتبرك..

لا تعني هاته الجمل بالضرورة أن إحداهن ترتكبن الكبائر وأخريات بعيدات كل البعد عن ذلك، أو أن إحداهن مؤمنة ببركة الأولياء والباقيات لا، إنهن تعبرن عن تناقض وصراع هوياتي، حيث تقول المبحوثة رقم 03 (50سنة، مطلقة، جامعي): (أَنَا مَانْرُوحْشْ عَنْدْ القْزَانَاتْ) وكأن هذه المقولة تجلب نوعا من الهيبة والوقار ونوعا من الالتزام الديني اتجاه الله، أما قولها (هِيَ تْحَّلْ الطَالَعْ وتُضْرُبْ الْخْفِيفْ.... وتَقْلَعْ الْعَيْنْ) فهذا التصريح يسمح لنا بالإضافة إلى ممارسات هؤلاء إلى إدراك التمايز ضمن جدلية المقدس/ المدنس.

تقوم المرأة إذن باكتساب الثقافة الدينية التي تدفعها باستمرار لتنزيه ممارساتها اليومية دون غيرها وهذا ما يؤكده لنا نصير بوعلي (1993) في أن ميول المرأة نحو مشاهدة البرامج الاجتماعية والدينية يعود لكونها ميالة بطبعها النفسي إلى المواضيع التي تعالج الأسرة والمجتمع، ويقع هذا تحت وطأة التقسيم الاجتماعي للأدوار المنوطة بها كإنسان في مراحل التنشئة الأولى، بحيث يراد لها دائما أن تكون أكثر عاطفية وأكثر حساسية.

فالمرأة تثبت شخصيتها من خلال اكتساب الخبرة والمعرفة الدينية التي تستمدها عند مشاهدة البرامج الدينية، وهي في نفس الوقت فرصة لتبدي تجربتها من خلال ما يجمعها من حوارات ونقاشات مباشرة مع قريناتها، لأن الحديث عن هيمنة المعنى لدى المرأة المتدينة يرتبط بشكل كبير بالبرامج والخطابات الدينية عموما وبمختلف الاستعدادات الذاتية على وجه التحديد، بحيث عبرت النسوة المستجوبات عن انجذابهن نحو البرامج الدينية، كما أن استعداداتهن المسبقة هي من يتحكم في الأسلوب الذي سيتعاملون به مع الخطاب، "إننا نجدهم يضعن أنفسهن بالتالي طواعية تحت سلطة النص وسلطة المرسل بفضل الثقة التي يعلقونها عليه" (مجاهدي، 2011، ص.155)

فالمتتبع أو المشاهد لخطاب البرامج الدينية المحلية يجد لنفسه مكانا له داخل هذا الإطار أيا كانت مضامينه وأيا كانت الآراء والمواقف التي يحملها، وكأنه بشكل من الأشكال يخاطبه ويحاوره، لأن الشخصيات المقدمة للخطاب (الفقيه الفضائي) تمثل من جهة تباين الرؤى والمواقف التي نجدها في الواقع، وتتيح بذلك لكل واحد الفرصة من جهة أخرى لكي يجد لنفسه مكانا ضمن الخطاب الديني أو الفتاوى المقدمة على الهواء مباشرة، فيستفيد منها ويدركها.

3.3. هوية المرأة بين تجاذبات الخطاب المسجدي والخطاب التلفزيوني:

مما لا شك فيه أن تواجد المؤسسات الدينية والتربوية كالمسجد والزوايا... هو لغاية أساسية تتمثل في تعليم الناس لقضايا دينهم سواء تعلق الأمر بالمعاملات أو طرق العيش أو تذكير أو تثقيف وخلق وعي للناس بأهمية وجود هذا الدين لتسيير الحياة الاجتماعية للأفراد أين تتم "مجابهة مصاعب ومشاكل الحياة البشرية"(Cipriani, 2004, p. 219) بالتالي فإن "منهج حياة كل مجتمع هو دينه لأنه صادر عن تصوره ألاعتقادي ومتأثر به" (الخريجي، 1990، ص.36). إن ما يهمّنا هنا وما يهم السوسيولوجيين الباحثين في مجال الحقل الديني الممارسة الفعلية في إطار زماني ومكاني معين والتي تعكس نتاج الحياة اليومية عن مختلف التفاعلات الاجتماعية بحدّ ذاتها.

لقد كانت المساجد أشبه ما تكون بجامعات إسلامية يتزود ويتغذى الناس فيها بعلوم الدين ويتفقهون بمختلف المسائل المرتبطة بحياتهم اليومية إلى جانب انتشار حلقات تحفيظ القرآن الكريم، وكان تسييرها من مهمة الخطيب أو "الفقيه الأرضي" الذي كانت "وظيفته الجوهرية في ما مضى هي التصدي لحاجات الناس الفقهية والدينية إضافة إلى كل ما يتعلق بها من إجابات عن أسئلتهم وتعليم ديني وخطابة وتأليف ويعد ذلك من مقومات الخطاب الديني بصيغته العملية والتداولية بين رجل الدين والجمهور الذي يتلقى أمر دينه عنه" (الغذّامي،2011، ص.18) والمعروف أن الخطاب الديني الأرضي الصادر عن الفقيه يتسم بكونه "محلي وواضح الظرفية مكانا وزمانا وثقافة واحتياجا" (الغذّامي،2011، ص.19) وبما أنه يمتاز بهذه التركيبة البنيوية فهو إذن ذو نسق علائقي مباشر ومحدد في الأبعاد والمقولات من حيث التصاقه بقضاياهم وباعتباره يعايشها.

مقابل ذلك، نجد أن هذا "الفقيه الأرضي" قد تحول من كونه محدد الوجود بالأبعاد الجغرافية وكذا الزمانية والمكانية إضافة إلى الأبعاد اللغوية إلى " فقيه فضائي" "أهم خصائصه أن

جمهوره لا يقتصر على عينة بشرية أو ثقافية واحدة، ولكنه يخاطب ثلاثة 03 عينات ثقافية وعقلية هي: الجمهور المحلي.... الجمهور المهاجر.... والآخر" (الغذّامي،2011، ص.ص. 19-20).

ينبغي الإشارة إلى أننا لا نولي اهتماما بتحليل مضمون الخطاب الديني الذي يبث في التلفزيون الجزائري (قناة الشروقTV) فحسب، بل نهتم بدرجة تأثير هذا البرنامج وهذا البناء على ذهنية وسلوك المرأة، نظرا للوقت الذي تقضيه جراء متابعتها للبرامج الدينية المفضلة التي تترجمها إلى ممارسات فعلية معيشية على حساب الأقوال، فهي تعيش بذلك بين نمطين من الحياة ، حيث تحاول الحفاظ على هويتها الدينية الأصيلة، وتتخذ من مظاهر العلمنة سلوكات وأفكار تتبناها خلال صيرورة تفاعلاتها الاجتماعية اليومية، إنها تبحث بصفة دائمة ومستمرة عن ملاذها الثقافي الديني وجملة المعارف الدينية الجديدة التي تعمل على تأطير مختلف سلوكياتها الدينية من خلال «تعايش أنماط متعددة من المعتقدات داخل نسق واحد متميز» (Berque, J. 1955)، حيث تتصور (المرأة المتلقية للخطاب) أن ذاتها هي أكثر معرفة بالدين الرسمي(الدين العارف)منها لأشياء أخرى ، بمعنى أنها تنظر إلى الدين كما ينبغي أن يكون وليس كما هو كائن (الدين الشعبي المعاش).

وبمجرد تلقي هذا الخطاب يصبح جمعيا واجتماعيا في ذات الوقت، بحيث يترسخ في النظام الثقافي الاجتماعي، ويصبح بذلك من أهم العوامل البانية للهوية الثقافية عموما والهوية الدينية باعتبارها موضعا للدراسة على وجه الخصوص، نظرا لما يمثله من قوة وسلطة معرفية دينامية ويتخذ مسارا معينا في الفعل الاجتماعي وفي جملة الرموز والمعاني والدلالات التي تتمثلها وتضفيها المؤمنات على حياتهن ومعاشهن فضلا عن ممارساتهن اليومية وعلاقاتهن الاجتماعية. وهنا تعبر المبحوثة رقم02 (41سنة، متزوجة، جامعي) على أن "الهُوِيَة تَاعْنَا هِيَ دِينْنَا الإِسْلَامِي" وما هذا إلا تأكيد على الصيغ الدينية الإسلامية التي بنيت ولازالت تبنى بفعل الإرث الثقافي والأنثروبولوجي التي أعيد إنتاجها وفق التوصيف البورديوي ضمن الإطار الحداثي، وبغية المحافظة على ما هو إرث تقليدي جماعي في عملية مسايرة عصرنة الأنساق والتفاعلات اليومية، وتبني مفهوم الفردانية في إعادة الإنتاج هاته، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على نمط الصراع القائم بين نسقين مختلفين: النسق الديني التقليدي الذي يتبنى معالم الهوية الجماعية والنسق الديني الحداثي الذي يتبنى معالم الهوية الفردية، ويرجع ذلك إلى الخطاب الديني في حدّ ذاته كونه يخاطب الأفراد في كثير من الأحيان على غرار المجتمع. فمثلا عند مشاهدتنا للخطيب الذي يؤكد على مسألة الصلاة الفردية والحفاظ عليها مقابل التأكيد على صلاة الجماعة نفهم ذلك ونجد تجسيدا له، وهذا ما ذهبت إليه

المبحوثة رقم 05 (67سنة، متزوجة، أمية) قائلة (نْصَلِي فِي الدَّارْ، لَخَاطَرْشْ مَارَاهْشْ وَاجَبْ عْلِيَّا نْصَلِي فِي الْجَامَعْ) حيث أجمعت فئة النسوة اللائي تقدمن في السن إلى اعتبار صلاتهن ضمن الجماعة من أولويات تدينهن فتقول المبحوثة رقم 08 (39سنة، متزوجة، جامعي) معبرة عن تدينها "مَانِيشْ نْخَلِي نْهَارْ يْفُوتْنِي إِلاَّ وْنْرُوحْ لْلْجَامَعْ نَقْرَا الْقُرْآنْ ونْصَلِّي الظُّهْرْ والْعَصْرْ جَمَاعَةً، ونْزِيدَكْ مَا نْخَلِيشْ وْلاَدِي يْبَدْلُوا القَنَاةْ اللِّي يَفْتُو فِيهَا الْجَزَايْرِيِينْ". تحتاج هاته المقولة إلى الكثير من التحليل لإظهار درجة الصراع الهوياتي بين الجيلين، وخصوصا ما تعلق بالمجال الديني والمجال العرفي، كون أن تصريحات هذه الحالة نفسها وصلت إلى مرحلة متقدمة من الوعي والنضج المعرفي الديني وحتى على الصعيد ألممارساتي وعلى غرار المبحوثة رقم 12 التي لازالت في مرحلة شباب نوعا ما، وتحكمها أولويات منزلية وأخرى تنشئوية تحيلها إلى ممارسة ثقافتها الدينية بمعزل عن الجماعة، كما أن الخطاب الديني الذي يبث في القناة الجزائرية وسبب متابعتها له هو راجع إلى لغة الخطاب في حدّ ذاته، باعتباره علامة مميزة وإطارا ثقافيا وجوديا للحياة، بها يمكن التواصل والتبادل من أجل خلق التشابه والتباين في نفس الوقت بخصوص المعاني والدلالات التي تؤديها اللغة بالنسبة لمتابعيها.

4.3. السلوك الديني لدى المرأة والخطاب التلفزيوني:

يتشكل السلوك الديني لدى المرأة عبر منظومات قيمية متعددة تبنيها ذهنيات دينية (تمثلات) وأعراف اجتماعية عبر مسارات تنشئوية وفضاءات اجتماعية متباينة أبرزها وسائل الإعلام (التلفزيون) لما له من "قوة والتي من النادر أن توازيها قوة إعلامية أخرى، حيث يسهم بشكل فعال في رفع مستوى الجمهور المتلقي عقليا وذهنيا وفنيا بصورة تلقائية" (الدليمي، 2005، ص.20) وتتفاعل المرأة مع المنتجات التلفزيونية الدينية كمتلقية وفي نفس الوقت تضفي عدة معان على المضامين التي تقترحها عليها، ولا تتحرك إلاّ بتوجيه الوعي لها، وبالخضوع التام للتصورات التي يكونها هذا الوعي للأدوار الواجب تأديتها على مسرح الحياة أمام الآخرين وفي تفاعل خصب معهم.

ثم إن ما يحكم التفاعلات الاجتماعية هو أداء الفاعلين لأدوارهم وفق نماذج أعدت سلفا في الثقافة السائدة في مجتمعهم، وقد يكون ذلك الأداء جيدا أو سيئا، شعوريا أو لا شعوريا، وبذلك تصبح عملية بناء المعنى مسألة تفاوضية للمرأة باعتبارها متلقية لهذا الخطاب، أين تضع المعاني التي تنتجها الثقافة التلفزيونية على محك الثقافة المحلية، لـ "يقوى البعد الديني بالممارسة ويصبح رجال الدين هم الناطقون باسم الجماعة، أو يتعزز البعد الثقافي ويتقدم على الديني، حتى إذا ما

تعولمت المجتمعات فإنها تحمل على الدوام الأثر الثقافي للدين المؤسس" (روا، 2013، ص.117). وفي هذا الصدد تشير المبحوثة رقم 01 (22سنة، عزباء، طالبة جامعية) قائلة (تَبْغِي الصَّحْ، أَنا نْصَلِي فِي الْوَقْتْ مَا عَدَا كِي نْكُونْ نَقْرَا (نَجْمَعْ الظُهْرْ مْعَ الْعَصْرْ) ونْصَلِي الضُحَى فِي Week end، إلاَّ أَنَنِي مَازَالْ مَاتْحَجَّبْتْشْ لِحَدِ الآنْ) توحي لنا هذه المبحوثة من خلال تصريحها إلى أنها على وعي بأهمية ارتداء الحجاب، ولكن الوقت لم يحن بعد لذلك، فأثناء استرسالها في الكلام تبين لنا أن من بين أهم الدوافع التي لا تدفعها إلى لباسها للحجاب هو تخصصها الدراسي في الجامعة، في شعبة اللغة الفرنسية، فهي ترى على غرار زميلاتها أنه بمجرد دراستها لهذه اللغة فإنه يتوجب عليها الالتزام ببعض السلوكيات لتعبر بشكل حضاري وعلماني في نفس الوقت عن تخصصها وليس عن هويتها الاجتماعية والدينية (هوية معلمنة)، وتعيش هذه الحالة التمثيلية اتجاه ذلك نوعا من التناقض من حيث الالتزام بأداء الصلاة في أوقاتها المحددة وزيادة على ذلك فهي تكفّر عن سيئاتها بالتعويض توبة ودعاءا في صلاتها للضحى، أمّا ما يخص الخطاب الديني في القناة الجزائرية فهي تقول: (Sincèrement مَا نَتْفَرَجْشْ قَاعْ الْبَرَامِجْ الدِينِيَة الْخَاصَة بِالفَتَاوَى الْجَزَايْرِيَة)، إننا إذا ما نظرنا إلى سن هذه المبحوثة، فإننا نرى أنها ليست بحاجة اليوم إلى متابعة مثل هذه البرامج وليست مستعدة لسماع المسائل الدينية المتعلقة بالعبادات وبعض الأجوبة الأنطولوجية اللهم إلاّ ما تمت معرفته مسبقا في المقررات الدراسية والقيم التنشئوية، وعليه فان هذه الحالة هي أكثر عرضة لمظاهر العلمنة على حساب التدين نظرا لسياسات التحديث والنزعة البرغماتية التي تحكمها.

يحتل الخطاب الديني "موقعية خطيرة من التأثير لا يضاهيه فيها أي خطاب آخر، فهو الذي يصوغ العقل الجمعي ويوجه السلوك العام، نظرا لارتباط مجتمعاتنا بالدين ولما يمثله هذا الخطاب في نظرها من تعبير عن أوامر الدين وأحكامه" (الصفار، 2005، ص.17)، وعليه فكلما تعددت واختلفت المرجعيات الدينية، كلما أصبح الأفراد يعيدون إنتاج أفعالهم الاجتماعية والدينية تماشيا مع خصوصيات حياتهم اليومية من مصالح ورغبات وحفاظا على هويتهم الدينية الجمعية/ الفردية ، فهم لا يستطيعون الاستغناء عن وسائل الإعلام الحديثة التي تساعدهم على اكتساب درجة من الثقافة والوعي الدينيين في خضم التزاحم التكنولوجي وتعدد الإيديولوجيات، لتؤكد المبحوثة الرابعة (04) (32 سنة، مطلقة، متوسط) (مَا نَجَمْشْ نَتْخَيَّلْ رُوحِي بْلاَ التِلِفِزْيُونْ الْجَزَايْرِي- القنوات- وَ بْلاَ حِصَةْ "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ" إِلّي تْبَانْلِي إِلّي مَا يَتْفَرَجْهَاشْ يْفُوتُوهْ بَزَافْ صْوَالَحْ تَاعْ دِينَّا وْثَقَافَتْنَا وْيَشَرْحُوهَا مْلِيحْ وْمَفْهُومَة) هنا نلاحظ أن التلفزيون يعد حاجة ضرورية من حاجات المرأة

اليومية، والتي تسعى من خلاله إلى الترفيه عن نفسها وعن أوقات فراغها بمتابعة القنوات الجزائرية، خصوصا حصة فاسألوا أهل الذكر الجزائرية التي تعطيها درجة معينة من الثقافة والوعي الدينيين الذي يمكنانها من استعماله في مختلف التفاعلات الاجتماعية "لأن الهدف من تزويد الجمهور بالثقافة الدينية هو تجسيد لهذه الثقافة في الواقع الميداني، وصناعة رأي عام تؤطره هذه الثقافة الدينية وتتحكم في سلوكاته وأفعاله"(بغداد،2010، ص. 46)، وذلك نظرا لأسلوب الخطباء في إلقاء خطبهم وكل المواعظ الأخرى بالصوت والصورة المطلوبين وباللغة الجزائرية المفهومة (العامية)، فهي كمن يضع السمّ في طبق من حلوى، ويحيلنا ذلك إلى تأكيد الفرضية التي وضعناها حول كون متابعة البرنامج الديني ضمن قناة الشروق TV جاء لتعويض النقص الذي تعانيه المرأة الجزائرية بصفة عامة والمرأة المعسكرية على وجه الخصوص في ثقافتها الدينية، أين تسعى هذه الأخيرة إلى اكتساب المعرفة الدينية التي تساهم في إعادة إنتاج هويتها الدينية، كما أنها تطمح في الوقت نفسه لبلوغ مكانة اجتماعية داخل بيتها وضمن الحيز الاجتماعي الذي تعيش فيه، وتقول هنا المبحوثة رقم (06) (73سنة، متزوجة، متوسط): (مِينْ يْقُولُو فْلَانَة تْخَافْ رَبِي وْمُصَلْيَة وْحَاجَّة بِيتْ اللَه، النَّاسْ تَحسْبَلْهَا أَلْفْ حْسَابْ) تعكس هذه الحالة وعي هذه المرأة الديني من خلال ثقافتها وممارساتها للحصول على مكانة اجتماعية متميزة، وهي تقوم بكل ذلك لهدف استراتيجي مهم يعبر عن حالة التدين لأجل إضفاء الشرعية على مختلف أقوالها وأفعالها انطلاقا من المكانة الاجتماعية التي حددت معالمها بذكاء. ثم إن عملية تمثل الخطاب الديني المتلفز واستبطان بنياته، تمثلا ذهنيا جسديا في نفس الوقت ليست مجرد قدرة فطرية لدى الأفراد، بل هي قدرة تنشأ وتبنى وتزرع اجتماعيا وثقافيا فيهم، حيث ستدخل في تكوينهم الشخصي عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية بواسطة التربية والتعليم والتلقين والعنف الرمزي في ظل الصراع الذي تعيشه المجتمعات التقليدية الحاملة لرأسمال الثقافة الدينية، وهذا الأمر نوعي ومتمايز رهانه سعيهم الدائم إلى المحافظة على مواقعهم ومكاناتهم الاجتماعية .

5.3. الهوية الدينية لدى المرأة المعسكرية بين التعدد والتناقض:

يعدّ قياس الفهم الديني والمعتقد قياسا دقيقا من بين أهم الصعوبات التي يواجهها الباحث في سوسيولوجيا الدين، كون هذا القياس يرتبط بمجموعة التصورات والتمثلات الذهنية حول المقدّس وطريقة التعاطي معها أو طريقة إدارة ما يتعلق بها على حدّ تعبير Hubert، لأن " المعتقدات

بحاجة إلى البشر حاجة البشر إليها" (السواح، فراس، 2002، ص.49) وذلك لهدف جوهري يتمثل في تحيينها والمحافظة على تواجدها باعتبارها أساس التفاعل البشري مع الله على حدّ تعبير Piette.

وانطلاقا من الحياة اليومية التي تعيشها المرأة الجزائرية والتي تتسم بدرجة كبيرة من التعقيد والتعتيم وعدم القدرة على العيش وفق سجل واحد، بل نجدها تتعدد في السجلات والمرجعيات في ضل عالم مشبع بالإعلام والاتصال كما يذكر Kumar، لذلك يمكننا أن نطرح تساؤلا ضمنيا في هذا المجال مفاده: هل يمكن القول أن المرأة اليوم مجبرة على إتباع ما ورثته من الأجيال السابقة؟

وتقول المبحوثة رقم 08 (39سنة، متزوجة، جامعي) (أَنَا نْتَبَعْ حِصَّةْ فَاسْأَلُو أَهْلَ الذِّكْرِ وِينْ يْسَقْسُو الْكُثرَى نْسَا الشِّيخْ عْلَى أُمُورْ الْحَيَاةْ مَنْ طْلاَقْ، وْوَرْثْ وَزْوَاجْ.....وَنْرُوحْ نْزُورْ ثَانِي، وْقْبَلْ مَا نْرُوحْ عَنْدْ أَيّ وَالِي يْلِيقْ نْرُوحْ عَنْدْ جَدِّي الأَوَلْ وْمْنْ بَعْدْ نْرُوحْ عَنْدْ إِلّي نَبْغِي) هكذا إذن تبدو ازدواجية الفعل وتناقضه في نفس الوقت، فمن جهة تصرح على متابعتها للحصص الدينية بمختلف ما تحتويه من فتاوى وفي مختلف المجالات الاجتماعية والتي تساعدها على فهم أفضل لمعالم الإسلام الرسمي من خلال النص المقدس الذي يتكلم فيه خطباء الدين، إلاّ أنها لازالت تعتقد وتمارس طقوسا ورثتها بفعل التنشئة الاجتماعية وبفعل الإسلام التقليدي الشعبي من مجتمعها المحلي، وهي تؤكد على زيارة جدّها الولي، لأن ذهابها هذا يعتبر استئذانًا ومشورةً للسماح لها بزيارة الأولياء والضرائح الأخرى من أجل قضاء حوائجها، وهي تعتقد أن جدها الولي سوف يسبب لها المرض والألم في حالة عدم زيارته، وتصرح أيضا (الزْيَارَة عْلَى حْسَابْ نِيَّةْ الْوَاحَدْ، أَنَا نْرُوحْ نَكْتَبْ لْرَاسِي وْبَاشْ نْرَيَّحْ) فزيارة الولي حسب اعتقادها ستكون تخفيفا لما تعانيه من أمراض والتماسا لحلول البركة عليها.

وزيارة الضريح لا تقتصر فقط على طلب الشفاء فقط، بل تتعدد وظائفها إلى طلب فك رباط الزواج والحمل، إذ تستعين بعض المبحوثات ببركة الولي في تحقيق مطلب الزواج فتقول المبحوثة رقم 02 (41سنة، متزوجة، جامعي) (أَنَا شَفْتْ رَاجَلْ جَانِي فِي الْمْنَامْ سْمُوهْ قَادَة وْقَالِي خَفِّي نُوضِي نْفْضِي رُوحُكْ.... وْزُرْتْ سِيدِي قَادَة وْبَعْدْ ثْلاَثْ سِيمَانَاتْ نْخَطَبْتْ لْوَاحَدْ مْعَسْكْرِي وْسُمُوهْ قَادَة) حسب هذه المبحوثة في سياق كلامها أنها لم تكن تؤمن بهذه الكرامات إلى أن تعرضت بشكل شخصي لهاته التجربة، أين انقلبت أفكارها رأسا على عقب في درجة اعتقادها بهذه الكرامات، فهي بالإضافة إلى إسلامها الرسمي من خلال تبنيها متابعة مختلف الحصص التلفزيونية التي مجالها

الدين والالتزام ببعض الطقوس مثل الصوم شهريا ثلاث أيام (الأيام البيض أيام 13-14-15 من كل شهر)، وصوم عرفة وارتداء الحجاب والصلاة في أوقاتها، فإنها تولي أهمية كبيرة للإسلام الشعبي وخاصة لكرامات الأولياء لذلك هي تسمح لنفسها بممارسة بعض الطقوس من أجل الخروج من عنوستها مثلا، وهناك من تقلن بأنها مارست فك الرْبَاطْ في هذا الولي فتقول (كُنْتْ مُرْبُوطَة، وْسَنْسْلَةْ سِيدِي قَادَة هِيَ إِلّي حَلّتْ لِي الرْبَاطْ) إذ ينبغي الإشارة إلى أهمية بعض الطقوس الدينية التي تمارس على مستوى الضريح مع بعض الكلمات لتترجى الولي – سيدي قادة- ويتوسط لها عند الله لفك الرِباط ومن ثمة تهيئتها لدخول مجال آخر عبر طقوس المرور التي ستتمثل في الخطبة والزواج، مع العلم أن هذه المبحوثة لا تنتمي لثقافة المجتمع المحلي المعسكري، بل تنتمي لإحدى الولايات المجاورة الأخرى، وهنا سنلمس أهمية الاندماج والتكيف ومن ثمّ الحراك الذهني والفكري التي تأثرت وانفعلت به هذه المستجوبة، فقد تزوجت في مدينة معسكر لأنها تؤمن بفكرة "المكتوب" فـ" المَكْتُوبْ هُوَ اللّي جَابْنِي لْقَادَة و لْمْعَسْكَرْ" كما تصرح بالحرف الواحد.

يتضمن الخطاب الديني ضمن برنامج "فاسألوا أهل الذكر" الذي يبث في القناة الجزائرية محل الدراسة العديد من الفتاوى الخاصة بأنماط هذا التدين الشعبي، تحرم هذه الفتاوى طقوس الزيارة والتبرك بالأولياء جملة وتفصيلا كونه شرك بالله ، حيث نجد أن المرأة بحدّ ذاتها متيقنة ومتأكدة كل التأكد من تحريم التبرك بالأولياء إلاّ أن عاداتها وتقاليدها والعرف السائد في مجتمعها يجبرها على حدّ تعبيرها على الالتزام والخضوع للثقافة الاجتماعية، إذ ستذهب إحدى المبحوثات إلى فعل مدنّس في وقت مقدس لتظهر لنا "جدلية التخفي والتجلي" حسب الزمان والوقت الفعلي وتصرح المبحوثة رقم 04 (32سنة، مطلقة، متوسط) (الْكَتْبَة (السحر) فِي لِيلَةْ سْبْعَ وْعْشْرِينْ تَصْدَقْ 100 بْالْمْيَة) إنه لتناقض جسيم يعبر عن التقاء مجالين مختلفين: مجال المقدّس (قدسية شهر رمضان وقدسية ليلة القدر المتزامنة مع ليلة السابع والعشرين أين يتم التعبد والتقرب من الله عزّوجلّ بالذكر والصلاة)، ومجال المدنس (اختيار هذا اليوم بالذات لإنجاح فعل السحر) لتضيف قائلة (فِي لِيلَةْ سَبْعَة وْعَشْرِينْ لْجْنُونْ يَنْطَلْقُوا) أين تصبح هذه الطلاسم وهذه الممارسات شائعة في هذا اليوم عند اللذين لا يمتلكون إيمانا قويا بدينهم وبقدسية هذه الشعيرة وملاذا لتدنيس أفعالهم في هذا الشهر الفضيل، ولكن الملفت للانتباه أن هذه المبحوثة بالذات عبّرت عن كونها متلقية جيدة وزبونة دائمة للبرامج الدينية وعلى رأسها البرنامجين" فاسألوا أهل الذكر"، و"انصحوني" لشمس الدين الجزائري، فإلى أي مدى ستساعد هذه البرامج الدينية المرأة في التكفير عن ذنوبها؟...

إن تحليل الممارسة الدينية للمرأة في ظل الخطاب الديني المُتلفَزْ ليس بالضرورة تطبيقا لكل مجريات الأحاديث المنطوقة من طرف الفقيه أو الخطيب الفضائي، بل تتعداها لتبيح المرأة لنفسها الولوج لعالم المدنسات كون المجال الزمني كفيل لتصحيح أخطائها كلما تقدمت في السن بالذهاب إلى المسجد والقيام بمناسك الحج تكفيرا عن ذنوبها، فكما تقول كل المبحوثات (شْوِيَة لْقَلْبِي وْ شْوِيَة لْرَبِي) فهن تركزن بذلك على أهمية الفضاءين: الديني والدنيوي، فالفضاء الديني يعد ناقصا لوحده، بل يجب تعبئته بما هو اجتماعي ومصلحي خدمة للأغراض الشخصية، وتعبيرا على هذا الأسلوب من الخطاب الديني فإن بعض المبحوثات يلجأن إلى هذه القناة لتغطية النقص المعرفي للإسلام، و يبقى العمل بها شيئا نسبيا اللهم إلاّ ما كان منها مصلحيا.

4. مناقشة النتائج:

لقد حاولنا في دراستنا المتواضعة هاته تقديم إلمامة خطاطية عامة بأهم الخرائط الخطابية الدينية لدى المرأة المحلية، إلا أن محاولتنا هاته لا تخلوا من صعوبات ومخاطر، حيث تتمثل هذه الإشكالات في:

صعوبة قياس الهوية الدينية للمرأة رغم الاحتياطات المنهجية والتقنية التي يمكن أن يتسلح بها الباحث، فهذه العملية تطرح العديد من الصعوبات، ذلك أن طبيعة القيم والممارسات والاتجاهات الدينية في قدرتها على التخفي والظهور تجعلها غير شفافة، ولذلك وجب أخذ هذه الإشكالات بعين الاعتبار كي لا نعطي تأويلات خاطئة، فنحن في عملنا هذا إنما نقيس ما تصرح به المرأة عينة الدراسة من اتجاهات وقيم لا تمارسنه حقا في حياتها اليومية، وبالتالي مهما كانت درجة موافقة المرأة على قيمة معينة أو على سلوك ما أو اهتمامها بها، فإنها لا تعني بالضرورة إمتلاك القيمة والتصرف وفقها.

صعوبة رصد كل المبادرات الخطابية الدينية المتلفزة التي يقوم بها الفاعلون الدينيون، وصعوبة تتبع آثارها على واقع المرأة الجزائرية، لذلك نحن نعترف أن ما توصلنا إليه في بحثنا هذا لا يعد سوى مدخل أولي يمكنه مساعدة الباحثين على تملك أوجهه الشاملة سواءا الظاهرة منها أو الخفية.

إن قضية التفاوض الاستراتيجي التي تميز المجتمع الجزائري عموما والمرأة على وجه التحديد والتي حاولنا تقديم جملة من المعطيات والتحليلات بخصوصها إلا أنها تبقى ناقصة وتحتاج إلى مقاربات سوسيوتاريخية وأخرى أنثروبولوجية لفهم أعمق لمختلف تعقيداتها وفك شفراتها الملغزة.

إن تحليلنا للظاهرة الخطابية الدينية المتلفزة والنسوية لا يعني بالضرورة أننا أحطنا شموليا بالظاهرة الدينية الاتصالية (ضمن مجهودنا الفردي)، إنما هذا العمل يتطلب تظافر عدة جهود وتخصصات علمية في شتى الحقول للإحاطة بالموضوع وفق مقاربات منهجية وعلمية.

خاتمة:

متابعة المرأة لخطاب البرامج الدينية عموما وقناة الشروق TV بصفة دائمة أو بصفة متقطعة يعبر عن حاجتها لخطاب معقلن يواكب ويؤطر مختلف تمثلاتها وممارساتها الشعائرية والاجتماعية لتصحيحها، حيث يخلق لها مكانة اجتماعية متميزة تعيشها بصورة شعورية أو لا شعورية وهي تتمثل في بناء وإعادة بناء وإنتاج وإعادة إنتاج للموروث الثقافي الديني الذي سيساهم بدوره في رسم رساميل ومعالم الهوية الدينية لديها، وهو الأمر الذي خول لها الانتقال من حالة التدنيس التي كانت تعيشها بعض النسوة في مراحل عمرية صغرى إلى حالة التقديس كلما تقدمن في السن.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الخريجي، عبد الله. (1990). *علم الاجتماع الديني*. ط 02، رامتان، جدّة.
2. الدليمي، محمد عبد الرزاق. (2005). *عولمة التلفزيون*، ط 1، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان.
3. السواح، فراس. (2002). *دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني*. ط 04، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سوريا.
4. الصفار، حسن. (2005). *الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان*، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب.
5. الغذامي، عبد الله. (2011). *الفقيه الفضائي: تحول الخطاب الديني من المنبر إلى الشاشة*، ط02، المركز الثقافي العربي، المغرب.
6. الغيلاني، محمد. (2013). *الخطاب الديني في القنوات الفضائية العربية: دراسة وتحليل للمضمون*، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، في الموقع www.mouminoun.com الزيارة في: 03/10/ 2017.
7. المجاهيد، حسن. (2012). *سوسيولوجيا العالم العربي لدى جاك بيرك*، ط1، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والتوزيع، مراكش.
8. بغداد، محمد. (2010). *الإعلام الديني في الجزائر: الخطاب والهوية*، دار الحكمة للنشر، الجزائر.
9. حامد حسن، زينب. (2012). *تأثير الاعتماد على الفتاوى الدينية المقدمة في الفضائيات العربية على معارف وسلوكيات الجمهور المصري*، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الإعلام، كلية الإعلام، جامعة القاهرة.
10. روا، أوليفييه. (2013). *الجهل المقدس: زمن دين بلا ثقافة*، ترجمة: الأشمر، صالح، دار الساقي، بيروت.

11. سبيلا، محمد. (2010). *في تحولات المجتمع المغربي*، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب.
12. غدنز، أنطوني. (2005). *علم الاجتماع*، ترجمة: الصياغ فايز، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
13. مجاهدي، مصطفى. (2011). *برامج التلفزيون الفضائي وتأثيرها في الجمهور: شباب مدينة وهران نموذجا*، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
14. هايني، باتريك. (د.ت): إسلام السوق، ترجمة: سلطاني، عومرية، مدارات للأبحاث والنشر
15. اليحياوي، يحيى. (2016). *الخطاب الديني في الفضائيات العربية: مقاربة من منظور الموسطة*، ط1، مؤمنون بلا حدود، المغرب.
16. الشرفي، عبد المجيد. (2014). *مرجعيات الإسلام السياسي*، ط1، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، تونس.
17. Berque, Jacques. (1955).*structures sociales du Haut Atlas,* PUF, Paris.
18. Berque, Jack. (1984*). L'Islam au temps du monde*, Sindibad, Paris.
19. Bourdieu, Pierre. (2000). *Equisse d'une théorie de la pratique, précédé de trois études d'ethnologie Kabyle*, Edition du Seuil, Paris.
20. Cipriani, Roberto. (2004). *Manuel de Sociologie de la religion*, Le Harmattan, Paris.
21. Merssia Eliade. (1965). *Le sacré et le profane*, Edition Gallimard, Paris.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال وفق نظام توثيق الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA الإصدار السابع (7):
جير الزهرة، طيبي غماري. (2022). الخطاب الديني المُتلفزْ وتشكيل الهوية الدينية للمرأة: دراسة ميدانية على عينة من النساء المعسكريات. *افاق فكرية*، سيدي بلعباس (الجزائر)، *10* (1)، ص ص 509-528 ؛ رابط المجلة https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/396